أحيحة بن الجلاح
نظرات في سيرته وشعره

د. محمود عبد الله الجادر
كلية الآداب / جامعة بغداد

أبو عمرو[١] أحيحة بن الجُلاح بن الحريش بن حججي بن كلفة بن عوف بن عمرو بن عوف بن مالك بن الأوس[٢].

كان سيد الأوس وقائدهم في بعض حروبهم ضد الخزرج ، وكان جاهلياً قديماً ذكر الحاجري أن ولادته كانت سنة ٤٦٤ م[٣] ، ونحن لا نريد أن نناقش هذا التقدير لسنة ولادته لقناعتنا بأنه قائم على التخمين والتقريب لا التوثيق والتدقيق فليس ثمة أي سقف علمي يدعم هذا التحديد ولكننا قد نؤيد مقارنته للواقع التاريخي إذا وضعنا في اعتبارنا بعض الأحداث التاريخية التي عاصرها أحيحة أو كان طرفاً من الأطراف المشاركة فيها .

ذكر أبو الفرج الأصفهاني في قصة طويلة أن تُبّع الأخير وهو أبو كَرِب بن حسان بن أسعد الحميري أقبل من اليمن يريد المشرق فمر بيثرب فخلف بها أبنا له ومعنى هو حتى قدم الشام والعراق فقُتل أبنه في يثرب غيلة فكرر راجعاً وهو مُجمع على أخراب يثرب وقطع نخيلها واستئصال أهلها فنزل بسفح جبل أحد واحتفر بئراً ثم أستضاف أشراف المدينة مظهراً الموادعة فأرسل إلى زيد بن ضبيعة وزيد بن أمية وزيد بن عبيد – ويقال لهم الأزياد – وإلى أحيحة بن الجلاح ، فقال الأزياد : إنما أرسل إلينا ليملكنا على أهل يثرب فقال أحيحة : والله ما دعاكم لخير . وقال :

ليت حظي من أبي كَرِبٍ　　أن يَرُدّ خيرهُ خَبَلَه

فذهبت مثلاً ، وكان يقال إن مع أحيحة تابعاً من الجنّ يعلمه الخبر لكثرة صوابه ، ولكن الأزياد أصرّوا على الخروج إلى أبي كرب ، فخرج معهم أحيحة ومعه قينه له وخباء ، فدخل على أبي كرب فأجلسه وظل يسأله عن أملاكه بالمدينة فأوجس أحيحة خيفة من حديثه ، فلما عاد إلى خبائه قال أبياتاً وأمر قينته أن تغنيه إياها ، ثم إنه انتظر نوم جنود أبي كرب وقال لقينته : إني ذاهب إلى أهلي فشدي عليك الخباء فإذا جاءك رسول الملك فأوهميه أني نائم حتى إذا ألحّوا فقولي لهم ذهب إلى أهله وحمّلني رسالة إلى الملك فإذ أخذوك إليه فقولي يقول لك أحيحة ((أغدُر بقينة أوْ دغْ)) ورحل هو إلى يثرب وتحصّن بأُطُم له يقال له (الضّحيان) ، فلما أرسل أبو كرب في الصباح إلى الأزياد وأحيحة جاء الأزياد فقتلهم ، ثم جاءت قينة أحيحة فأبلغته الرسالة فأرسل كتيبة من عسكره فحاصروا أحيحة ثلاثاً فكان يقاتلهم بالنهار ويرمي إليهم بالتمر بالليل يقريهم قِرى الضيف ثم طالت الحرب بين أبي كرب وأهل يثرب أوسها وخزرجها ويهودها ثم إن أبا كرب رأى أن يصالح أهل يثرب ويجلو عنهم فرحل[٤] . .

إن هذه الأحداث تلقي إضافة على العصر الذي عاش فيه أحيحة ، فهي أحداث واكبت أواخر القرن الخامس وأوائل القرن السادس الميلاديين ، على أن لنا أن نتأمل خبراً آخر ساقه ابن سعيد الأندلسي الذي ذكر أن امرأ القيس الشاعر لما رحل إلى قيصر الروم استودع السموال بن عادياء أدراعاً له واستودع أحيحة بن الجلاح أدراعاً له أيضاً[٥] وهذا الخبر يؤكد أن أحيحة كان حياً في حدود العقد الرابع من القرن السادس الميلادي .

ويكون لنا بعد ذلك أن نعزز هذين الخبرين بخبر ثالث تداولته المصادر وهو أن سلمى بنت عمرو زوج أحيحة وأم ولديه عمرو ومعبد تزوجت بعبده هاشم بن عبد مناف فأولدها عبد المطلب جد الرسول (ﷺ)[٦] فإذا وضعنا في اعتبارنا أن ولادة الرسول (ﷺ) كانت في حدود سنة ٥٧٠م ثم افترضنا لكل من

أبيه وجده أربعين سنة كانت سنة ٤٩٠م هي سنة زواج سلمى بهاشم بعد طلاقها من أحيحة أو ما يقارب هذا التاريخ فتكون ولادة أحيحة على هذا الأساس في أوائل النصف الثاني من القرن الخامس الميلادي وهكذا تبدو سنة ٤٦٤ م التي ذكرها الحاجري على أنها سنة ولادته متفقة ومجرى هذه الأحداث التي ذكرناها وأن كنا نرفض مبدأ التحديد دون توثيق تاريخي .

قضى أحيحة حياته في يثرب وكان من أثريائها ، ذُكر أنه كان له تسع وتسعون بئراً ينضح عليها لنخيله ، وكان له أطمان هما (الضحيان) و (المستظل) ولكنه كان لا تنقل المصادر أخباراً كثيرة عن أحيحة شأنه شأن الكثير من شراء الجاهلية بل لعل أخباره حظيت بقسط من العناية لم تحظ به أخبار عدد كبير من مشهوري الشعراء الجاهليين ، ففضلاً عما سقناه من أخباره ذكروا أن قيس بن زهير استوهبه درعاً له فأبى عليه متعللاً بأنه يكره أن يلومه بنو عامر، وكان قيس في خصومه معهم فحاول قيس شراءها منه فأبى عليه وقال في ذلك شعراً[٨] .

وروى الأصفهاني أخباراً عن وقائع كانت بين الأوس والخزرج كان أحيحة قائد الأوس فيها[٩] .

وكان لكل هذه الأحداث آثارها في شعره ، بل إن مصادر كثير من أخباره هي أشعاره التي بدأ أن رواياتها تضمنت رواية الأخبار التي تمخضت عنها وأدت إليها .

وكما لم تتضمن المصادر خبراً عن زمن ولادته لم تتضمن شيئاً عن زمن وفاته ولكن جرجي زيدان نقل عن اسكندر ابكاريوس أنه توفي سنة ٥٦١ م[١٠] وهو تاريخ قد يتفق والإطار العام للأحداث التي خاضها ولكننا نتوقف عن قبوله لافتقاره إلى توثيق علمي ، أما ما ذكره الزركلي من أن وفاة أحيحة كانت سنة

١٣٠ ق هـ أي حوالي سنة ٤٩٠ م[١١] فإنه لا يتفق وهذا الذي ساقته المصادر من اخبار الشاعر والأحداث التي عاصرها .

لم تذكر المصادر ديواناً مجموعاً لأحيحة ولكنها تداولت أشعاره فأوردت نقضاً ومقطوعات له وروى أبو زيد القرشي قصيدته اللامية التي مطلعها :

صحوتُ من الصَّبا والدَّهرُ غُـولُ　　ونفس المرءِ آمنةً قتـولُ

في أثنين وعشرين بيتاً وجعلها خامسة المذهبات[١٢] .

وجمع شعر أحيحة الدكتور حسن محمد باجودة ونشره في الطائف سنة ١٩٧٩م في ديوان ضم ثلاثة ومائة بيت في خمسة وعشرين نصاً يمكن توزيعها بحسب عدد أبياتها على المسرد الآتي :

عدد الأبيات	بيت واحد	بيتان	٣ أبيات	٤ أبيات	٥ أبيات	٧ أبيات	٨ أبيات	٢٤ بيتاً
عدد النصوص	٥	٧	٣	٣	٢	٣	١	١

وواضح أن أغلب ما ضمه الديوان يقع في عداد المقطوعات عدا نصاً واحداً هو الذي جعله القرشي ضمن المذهبات وروى منه أثنين وعشرين بيتاً وورد في الديوان في أربعة وعشرين بيتاً .

وأول ما ينبغي أن نقرره بشأن اكتمال شعره في هذا الديوان المطبوع هو أنه لا يمثل كل شعره ، بل أنه قد لا يمثل إلا القليل النادر منه ولعل أوضح دليل على ذلك أن بعض هذا الذي وصل إلينا في ديوانه المطبوع يشير إلى أنه بقايا قصائد طويلة ، من ذلك بيتان وردا في ديوانه هما قوله :

أخلقَ الرَّبعُ مِنْ سعادٍ فأمْسى　　ربْعُهُ مُخلقاً كدَرْسِ المـلاةِ

بالياً بعدَ حاضرٍ ذي أنيـسٍ　　من سُليمى إذ تغتدي كالمهاةِ[١٣]

فهما بقية لوحة طلل غير مكتملة التفاصيل ، ولوحة الطلل مما يرد عادة في افتتاح قصائد تعالج موضوعاً رئيساً من الموضوعات التي اعتاد الجاهليون ممارستها من مديح أو فخر أو هجاء أو رثاء ... الخ فضلاً عن أن لوحة الطلل نادراً ما تنفرد في الافتتاح إذ غالباً ما يعقبها لوحة نسيب أو غزل ثم لوحة رحلة على ناقة أو فرس وذلك كله مما لا نجد له أثراً بعد هذين البيتين اللذين نستطيع أن نقرر جازمين أنهما بقية لوحة من بقية قصيدة ضائعة .

وما ينطبق على هذه المقطوعة ينطبق على مقطوعات أخرى منها هذا البيت المفرد الذي وصف فيه فرساً فقال :

تذرُ العناجيجَ الجيادَ بقفرةٍ　　مرَّ الدَّموك بمحضَرٍ ورجامِ[١٤]

فهل يعقل أن يكتفي شاعر بهذا البيت من وصف فرس يفترض ألا ترد صورتها إلا في إطار لوحة رحلة تمهد لغرض شعري كما هو مألوف في الشعر الجاهلي ؟

ولسنا نريد أن نستطرد في هذا الاتجاه فالحقيقة التي لا سبيل إلى مناقشتها هي أن أي ديوان قديم لا تصل مخطوطة منه ويتصدى محقق لجمع مادته من المصادر لا يمكن أن يعد مكتملاً ولا قريباً من الاكتمال ، فالمصادر مهما استكثرت من إيراد شعر الشاعر لا تتجاوز استحضار مادة استشهاد تقتطعها من النص دون سواها من أبياته .

ومن خلال نظرة متأملة فيما بقي من شعر أحيحة مما ضمّهُ ديوانه نستطيع أن نخرج بجملة من الحقائق تتعلق بالمضامين الفكرية والفنية لنتاجه الشعري وإن كنا سنبقى بحاجة إلى ما ضاع من شعره للخروج بأحكام أكثر دقة وتفصيلاً بهذا الشأن .

إن أكثر ما ورد في ديوان أحيحة من شعر يقع في إطار معالجات فكرية طغى عليها طابع شخصي متفرد قد أن نظفر بمثيل له في الشعر الجاهلي .

فشعراء الجاهلية مجمعون على إهانة المال من أجل الحفاظ على القيم الاجتماعية حتى أثر مثل قول عنترة :

وإذا شربتُ فإنّني مُستَهْلِكٌ　　مالي وعِرْضي وافرٌ لم يُكْلَمِ[١٥]

ومثل قول حاتم :

ذريني يكُن مالي لعِرضي جُنَّةً　　يقي المالُ عرضي قبلَ أن يتبدَّدا[١٦]

أما عند أحيحة فإن المال يمثل غير ما يمثله عن سواد ويحتل منزلة غير المنزلة التي يحتلها عند سواد ، فهو ينطلق من وجهة نظر ترى وفرة المال وصيانته وتثميره سرّ كرامة الوجود الإنساني ، وتلك حقيقة آمن بها أحيحة وجعلها محور نشاطه الإنساني ونادى بها في شعره بشكل صريح حتى إنه ليضع أيدينا على المحور المركزي لحكمته في هذا الصدد حيث يقول :

كلُّ النِّداء إذا نادَيْتُ يخذُلُني　　الابذائي إذا ناديتُ يا مالي[١٧]

ونحن لا نريد أن نذكر أثر التكوين الشخصي للشاعر ، فهو من أغنياء يثرب، ولعل تجاربه الشخصية هي المسؤولة عن هذا التوجه المتفرد في تذكيره، ولكننا قد نلمح أثر البيئة الحضرية الزراعية وأثر مجاورة اليهود والتعامل معهم في تركيز اتجاهه الذي بدت آثاره واضحة وطاغية على شعره فهو حين يعمد إلى الفخر لا يجد خيراً من المال وسيلة للفخر فيقول :

إذا جُمادى منعتْ قطْرَها　　زانَ جفاني عطنٌ مغضفُ

مُغْرورِفٌ أسبَلَ جبَّاره　　أسْود كالغابةِ معدودِف

يزخر في أقطارهِ مُفْدقٌ　　بحافتيهِ الشوعُ والغرْبفُ[١٨]

وهو يقول :

قد كنتُ أغنى الناسِ شخصاً واحداً　　سكنَ المدينةَ عن زراعةِ قُوم[١٩]

وتنتشر في ديوانه مقطوعات يتجه فيها إلى تلخيص تجاربه الشخصية في صيانة المال ليطرح خلاصة تلك التجارب حكماً فريدة يرسمها منهاجاً لمن يرى أن يقتدي به :

إذا ما جئتُها قد نعتُ عِذْقاً　　تعانِقُ أو تُقبّلُ أو تفدّي

أهنتُ المال في الشّهواتِ حتى　　أصارتني أسيفاً عبدَ عبْدِ

فمن نال الغنى فليصطنعهُ　　صنيعتهُ ويجهدْ كُلّ جهْد

أعلّمكُم وقد أرديتُ نفسي　　فمنْ أهدي سبيل الرُّشدِ بعْدي[٣٠]

وهو لا يطلق هذه الحكمة إلاّ من قناعة تبلورت من خلال تجارب حياته الخاصة التي ألفت في وعيه أن اقتناء المال في الشهوات لا ينتهي بالمرء إلا إلى الهلاك :

ولوْ أنّي أشاءُ نعِمتُ حالاً　　وباكرَ في صبوحٍ أو نَشيلُ

ولا عبني على الأنماطِ لُعسٌ　　على أفواههِنّ الزنجبيلُ

ولكنّي جعلتُ إزاي مالي　　فأقْلل بعدَ ذلك أو أنيلُ

◈◈◈◈◈◈◈

وما يدري الفقيرُ متى غِناهُ　　وما يدري الغنيُّ متى يعيلُ

وما تدري وإن القحتَ شَدْلاً　　أتلقِم بعدَ ذلك أمْ تُحيلُ

وما تدري إذا ذمّرْتَ سقباً　　لغيركَ أمْ يكونُ لك الفصيلُ[٣١]

وهكذا يبدو المال طموحاً رائداً في غرف أحيحة ، أما المجتمع وأما العلاقات الإنسانية فأنها لا تستقيم كلها ما دام الإنسان بحاجة مادية إلى الآخرين، فلا كرامة إلا في موضع اقتناء الحاجة إلى الآخرين .

أستغنِ عن كلّ ذي قربى وذي رحمٍ　　إنّ الغنيّ من استغْن عن الناس[٣٢]

بل أن أحيحة ليطرح آثار تجارب مرة جعلته يتخذ هذه النظرة المادية الصرف ، ففي شعره ما يشير إلى أنه ربما خاض تجارب قاسية أقنعته بموقفه فهو يقول :

أستغْنِ أو مُتْ ولا يغررْكَ ذو نشبٍ　　من أبن عمٍّ ولا عمٍّ ولا خالِ

فأجمع ولا تحقُرنْ شيئاً تجمِّعُه　　ولا تُضعينَّهُ يوماً على حالِ[٣٣]

إن التجربة الشخصية التي انتهت إلى بلورة هذه القناعة لم تمْنع أحيحة من ممارسة قيم العرف الأخلاقي الذي ظل قانون حياة العرب قبل الإسلام ، وذلك ما أتاح لزهير بن جذيمة العبسي أن يمدح أحيحة بقوله :

إذا ما أردْتَ العزَّ في آل يثْربٍ　　فنادِ بصوْتٍ يا أحيحة تُمنْعِ

رأيتَ أبا عمرو أحيحة جارَهُ　　يبيتُ قريرَ العيْن غيرَ مروَّعِ

ومن بأتهِ من خائف ينْسى خوْفَهُ　　ومن بأتهِ من جائعِ الجوفِ يَشبْعِ

فضائلُ كانت للغُلام قديمةً　　واكرم بفخر من خصالك الأربعِ[٣٤]

على أننا لو عدنا إلى شعر أحيحة نفسه لوجدنا أن توجهه إلى صيانة المال وتثميره لم يستغرق كل ما وصل إلينا منه ، وإن استغرق جملة صالحة منه ، فهو يمارس في شعره ما مارسه الآخرون من مواقف فروسية مارسها على صعيد الواقع وخرج منها بحصيلة تستحق الفخر فهو يمارس مواقف فروسية في المعارك التي كانت تجري بين الأوس والخزرج ويرسم في شعره صورة لشموخ القيادة التي كان يمثلها فحين يقتل الأوس كعبْ بن عمرو الخزرجي ويطلب أخوه عاصم بثأره يقول له أحيحة :

نبئْتُ أنَّكَ جئتَ تسـ　　ـعى بين داري والقبابة

فلقدْ وجدْتَ بجانبِ (الـ　　ـضحيان) شُباناً مهُابه

فتيان حرب في الحديـ　　ـدِ وشامرين كأسد غابة

هم نكّبوك عن الطـرّيـ　　ـقِ فبتّ تركبُ كلّ لايـه

أعصبْمُ لا تجزعْ فأن الـ　　ـحْرب ليستْ بالدُّعايـة

فأنا الذي تهجتُكـم　　بالقوم إذ دخلوا الرِّحايـة

وقتلت كبـاً قبلهـا　　وعلوتُ بالسقف الذؤابـه

أقسمتُ لا أعطين فـي　　كعبٍ ومثله سيابـه[٣٥]

ولا يقتصر فخر أحيحة الفروسي على هذا النص فثمة نصوص أخرى في الديوان تشير إلى أنه كان يمارس ما كان الفرسان من الشعراء الجاهليين يمارسونه من فخر بالاقتدار عند مواجهة الخصم[٣٦] .

وكما تمسك الجاهليون بقيم الخلق النبيل وتجنبوا ممارسة القيم الساقطة كان لأحيحة أن يفخر ببعده عن الدنايا وتمسكه بمكارم الأخلاق .

إنّني والمشعر الحـرام وما　　حجّتْ قريشٌ له وما نحَروا

لا آخذُ الخطّة الدنيـة مـا　　دامَ يُرى من تضارُعٍ حجرُ[٣٧]

بل إنه ليوصي أبناءه بالتزام الحدود وتجنب الظلم .

يا بني النُّخوم لا تظلمـوها　　إنّ ظلم النخوم ذو عقـالِ[٣٨]

ولم تقتصر نظرات أحيحة في القيم الإنسانية على قيم العرف وحدها فها هو يتجه إلى تنظير بعض تجاربه الفكرية فيصوغها في إطار الحكمة التي تخرج التجربة من إطار خصوصيتها إلى عمومية المعاناة الإنسانية غير المقيدة بزمان أو مكان أو شخوص أو حدث ، من ذلك قوله :

والصمتُ خير للفتـى　　ما لم يكُن عيٌّ بشيبنـه

والقـول ذو حظلٍ إذا　　ما لمْ يكن لبٌّ يعينُـه[٣٩]

وإنه ليصوغ مثل هذه التجارب في إطار الشعر التوجيهي لاسيما نظراته إلى الموت الذي كان يراد حقاً لابدّ للإنسان من أن يلاقيه مهما ظن أنه بعيد عنه.

والمرءُ قد يرجو الرَّجـــــا　　ءَ مغيَّباً والموتُ دونَـه[٣٠]

وهكذا تترسخ حقيقة حتمية الموت في شعره فهو يعود إليها في أكثر من موضع .

أشدُدْ حيازيمـــــك للـ　　ـموت فإنّ الموتَ لاقيـــكَ

ولا تجـــزع من المـــوت　　إذا حـــــلَّ بوادِيـــكَ[٣١]

وهو لا يمارس الفكرة بهذا التجريد دائماً وإنما يصوغها في أكثـــر مـــن إطار شعري ولعل أروع موضع مارسها فيه هو الأبيات الأربعة الأخيـــرة مـــن مذهبته حيث قال :

ويا منْ أخوةٍ كثروا وطابـــوا　　بناشئة لأمّهـــمِ الهبُـــولُ

ستثكلُ أو يفارقها بنوها　　سريعـاً أو يَهُمُّ بهمْ قبيـلُ

تَفَهَّمْ أيُّها الرّجلُ الجَهـولُ　　ولا يذْهب بكَ الرأيُ الوبيـــلُ

فإنّ الجهل محملهُ خفيـــــفٌ　　وإنّ الحلمَ محملُهُ ثقيـــــلُ[٣٢]

وما يدرينا لعل نظرة أحيحة هذه إلى الموت كانت نتاج فجـــائع متواليـــة أصابته فيمن أحب إذ لا يخلو من دلالة أن يستغرق غرض الرثـــاء عـــدداً مـــن نصوصه التي وصلت إلينا ويشير الإحصاء إلى أنها تحتل المرتبة الثالثـــة بعـــد الفخر والحكمة من حيث عددها فقد ضم ديوانه المطبوع ثلاثـــة نصـــوص فـــي الرثاء أحدها في رثاء الأزياد والذين قتلهم أبو كرب عندما أراد أن يخرب المدينة فهو يقول فيهم :

ألا بالصفَ نفس أبيّ لهـــفِ　　على أهل الفقارة أبيّ لهـــفِ

مضوا قصد السبيل وخلفوني　　إلى خلفٍ من الإبرام خلـــفِ

سدىً لا يكتفون ولا أراهم　　يطيعون أمراً قد كان يكفي[٣٣]

وقد لا يبدو رثاؤه للأزياد صادراً عن جزع قدر ما يبدو صادراً عن حكمة كان لها أثرها في نجاته ومقتلهم ، ولكن ديوان أحيحة يضم نصاً في الرثاء ليس بين أيدينا ما يحدد شخصية المرثي فيه ولكننا نرجح الظن أنه قريب إلى نفسه ، وقد ذهبت بعض مصادر تخريج النص إلى أن المرثي قد يكون أحد أبنائه أو إخوته فاللوعة ظاهرةٌ فيه والفجيعة تبدو نسغ كل كلمة وتركيب فيه فهو يقول فيه :

ألا إنّ عيني بالبُكاء تهلّلُ　　جزوعٌ صبورٌ كلّ ذلك تفْعَلُ

فإنْ تعتريني بالنهار كآبةٌ　　فليلي إذا أمسي أمرّ وأطولُ

فما هبر زيٍّ من دنانير أبلة　　بأيدي الوشاةِ ناصعٌ يتأكّل

بأحسن منه أصبح عادياً　　ونفسني فيه الحِمامُ المعجَّلُ[٣٤]

ولعل أروع ما يقع في إطار الرثاء من شعره سبعة أبيات أفرد الأربعة الأولى منها للغزل وجعل الثلاثة الأخيرة في رثاء نفسه وهي مقطوعة تشهد على أن دريد بن الصمة لم ينفرد بافتتاح الرثاء بالنسيب كما زعم ابن الكلبي في نص نقله عنه ابن رشيق[٣٥] فيها هو أحيحة يقول :

يشتاق قلبي إلى مليكة لو　　أمستْ قريباً ممَّنْ يطالبُها

ما أحسن الجيد من مليكة والـ　　لَبَّاتَ إذ زانها ترائبها

ياليتني ليلةً إذا هجَعَ النَّا　　سُ ونام الكلابُ صاحِبُها

في ليلةٍ لا يُرى بها أحدٌ　　يسعى علينا الا كواكبُها

لتبكني قينةٌ ومزهرُها　　ولتبكني قهوةٌ وشارِبُها

ولتبكني ناقة إذا رحلتْ　　وغاب في سَرْدَم مناكبُها

ولتبكني عُصبةٌ إذا اجتمعت　　لم يعلم الناسُ ما عواقبُها[٣٦]

ولا يضم ديوان أحيحة بعد ذلك إلا نصوص قالها في أحداث شخصية ، فثمة قوله في تبع أبي كرب الذي ذهب مثلاً :

ليت حظي من أبي كـــــرب　　أن يردّ خيرُهُ خَبَلَــه[٣٧]

وثمة أبياتٌ قالها لقيس بن زهير حين استوهبه درعاً كانت له حاوره فيها بقوله :

ألا يا قيس لا تسمنّ دُرْعـــي　　فما مثلي بساوَمُ في الدُّروعِ

فلــو لا خُلّة لأبي حـــــؤيّ　　وأني لستُ عنها بالنـــزوعِ

لأبت بمثلها عشرٍ وطــرْفٍ　　لحوق الأطلِ جيــاش تليــــع

ولكن سمّ ما أحببت فيها　　فليس بمنكرٍ غبْنُ البيــوعِ

فما هبةُ الدروع أخا بغيــضٍ　　ولا الخيل السوابقُ بالبديع[٣٨]

أما أبياته في وصف نخيله وحصينه (المستظل) و (الضحيان)[٣٩] فإنها تبدو مما قاله في حالات مفاخرة أو مهاجاة مما يرجح الظن أنها بقايا قصائد أو نصوص ضاع عدد من أبياتها ولم يبق إلا هذا الذي فاز به محقق الديوان.

هذا على الصعيد الموضوعي والفكري لشعر أحيحة ، أما على الصعيد الفني فإننا قد لا نستطيع استنباط أحكام دقيقة بشأن معمارية النص الشعري عنده ذلك أن أكثر ما وصل إلينا من شعره مقطوعات قصيرة كما ذكرنا وأن بعض هذه المقطوعات تحمل دلالات قاطعة على أنها بقايا قصائد ذات موضوعات متعددة ، وهكذا يبدو أن أي حكم على بنى قصائده سيبقى معلقاً إلى أن تكشف الأيام عن تراثه الشعري برمته .

وقد رأينا من خلال النصوص التي تأملناها أن لغة أحيحة تجنح إلى الطابع الحضري البعيد عن غرابة اللغة البدوية ووحشيتها ، بيد أننا رأينا مصطلحات البنية الزراعية ترد بكثافة في شعره لاسيما تلك المقطوعات التي

وصف فيها نخيله والجداول والآبار التي تروي أصولها الممتدة في الثرى على جانبي كل جدول .

ولا يكاد ما بقي من شعر أحيحة يقدم سمة مميزة في أوزانه وقوافيه فهو يقع في إطار هذا الموروث الجاهلي الذي يميل إلى البحور الطويلة وإلى الحروف الشائعة التردد في القوافي كالدال واللام والميم .

إن هذه الملاحظات حول شعر أحيحة مستخلصة من هذا الذي وصل إلينا منه وإن كنا لا نظن أن ما ضاع من شعره سيغير كثيراً فيها إلا أن المنطق العلمي يقتضي القول بأن اكتمال تراث الشاعر سيبقى ذا قيمة علمية مهمة في ميدان التأمل والاستنباط وتقرير الأحكام .

الهوامش والمصـــادر

١. كنى الشعراء، محمد بن حبيب (ضمن نوادر المخطوطات) ، تحقيق عبـد السلام هرون ، مصر ١٩٥٤م ، ٢٩٤/٢ .

٢. الأغاني، أبو الفرج الأصفهاني ، طبعة دار الكتب ٣٧/١٥ ، جمهرة أشعار العرب ، أبو زيد القرشي ، تحقيق علي محمد البجاوي ، مصر ١٩٦٧م ، ٦٤٦ ؛ جمهرة أنساب العرب ، أبن حزم الأندلسي ، بيـروت ١٩٨٣م ، ٣٣٥ .

٣. ينظر البخلاء للجاحظ تحقيق طه الحاجري ، مصر ١٩٥٨م ، ٣٩٠ هامش المحقق .

٤. أنظر الأغاني ٣٨/١٥-٤٦ .

٥. ينظر نشوة الطرب في أخبار جاهلية العرب ، تحقيـق د. نصـرت عبـد الرحمن، الأردن ، ١٩٨٢م ، ٨١٩ .

٦. ينظر المجد، أبن حبيب ، تحقيق أيلزة ليختن شـتيتر ، بيـروت (د.ت) ، ٤٥٦ ؛ الأغاني ٤٩/١٥ ، جمهرة أنساب العرب ١٤٠ .

٧. ينظر : البخلاء ٣٩٠ ، الكامل في اللغة والأدب ، المبرد ، تحقيق محمـد أبي الفضل إبراهيم ، مصر ١٩٥٦م ، ٦١/٣ ، الأغاني ٤٧/١٥ ؛ نشوة الطرب ١٩٠/١ .

٨. الأغاني ٥١/٥ .

٩. م.ن ٤٧/١٥-٤٩ .

١٠. تاريخ آداب اللغة العربية ، مصر ١٩٥٧م ، ١٤٩/١.

١١. الأعلام ، بيروت ١٩٧٩م ، ٢٧٧/١ .

١٢. جمهرة أشعار العرب ، ٦٤٧/٢.

١٣. الديوان ٦٤ ، الملاة : الملاءة ، درس الملاة : الملاءة الخَلِقة . المهـاة: البقرة البيضاء .

١٤. م.ن ٨٢ . تذر : تدع . العناجيج : جمع عنجوج وهو الرائع من الخيل.

١٥. ديوانه تحقيق محمد سعيد مولوي ، القاهرة ، ١٩٦٤م ، ٢٠٦ .

١٦. ديوانه تحقيق عادل سليمان جمال ، القاهرة ، ١٩٧٥م ، ٢٣٠ .

١٧. الديوان ٧٩ .

١٨. م.ن ، ٦٨ ، عطن : نخيل ، مغضف : كثير النعم ، معـرورف : طويـل، أسبل : مال ، مغدودف : مسبل لكثرة ميله ، الشوع : شجر البان .

١٩. م.ن ٨٢ . القوم : البر والقمح .

٢٠. م.ن ٦٥ .

٢١. م.ن ٧٣ ، صبوح : لبن الغداة ، نشيل : لحم يطبخ بلا توابل ، الأغـاط : الفرش ، لعس : فتيات في شفاههن سواد ، إزاي : مقابلي . يعيل : يفتقر، شول : جمع شائلة وهي الناقة التي خف لبنها ، ذمرت : فحصـت ولـد الناقة أذكر هو أم أنثى ، الفصيل : ولد الناقة .

٢٢. م.ن ٦٦ .

٢٣. م.ن ٧٨ ، النشب : المال .

٢٤. الأغاني ٥١/١٥ .

٢٥. الديوان ٦٣ ، القبابة : أطم بالمدينة ، اللابة : الحرة في الرمل ، سيابة : بلحة .

٢٦. ينظر الديوان ٧٥ ، ٧٩ .

٢٧. الديوان ٦٦ ، تضارع : هجاء تسيل الماء .

٢٨. م.ن ٨٠ ، التخوم : الحدود ، عقال : داء لايبر أمنه .

٢٩. م.ن ٨٣ ، عي : عجز عن النطق .

٣٠. م.ن ٨٣ .

٣١. م.ن ٧٠ .

٣٢. م.ن ٧٧ ، ناشئة : حالة حسنة ، الوبيل : الذي يخاف وباله .

٣٣. م.ن ٦٩ ، الفقارة : الموضع الذي قتل فيه تبع الأزياد الثلاثة ، سدى : هملاً .

٣٤. م.ن ٧٠ وتنظر مصادر التخريج ، الهبرزي : الدينار الجديد ، أبلة : موضع بالشأم ، الحمام : الموت .

٣٥. ينظر العمدة : أبن رشيق . تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد . مصر ١٩٥٦م ، ١٥١/٢ .

٣٦. الديوان ٦٢ ، اللبة : موضع القلادة من الصدر .

٣٧. م.ن ٦٨ ، طرف (بكسر الطاء) : فرس ، الأطل : الخاصرة ، تليع : طويل العنق .

٣٨. ينظر الديوان ٦٧ .

٣٩. م.ن ٨٠ ، ٨١ ، ٨٢ .